المحاضرة الرابعة: علاقات الممالیك البربرية مع القرطاجيين

1-أصل الفينيقيين:

الفينيقيون أمة سامية من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام. كانوا -كبقية الكنعانيين-بجزيرة العرب على الخليج الفارسي وانتقلوا إلى الشام مع إخوانهم من كنعان واختصوا بفينيقيا وصار الشام يقال له أرض كنعان.

وما انتهى اليه معظم المؤرخين ان الفينيقيين اخوان العرب في نسبهم وجيرانهم الاقدمون في وطنهم.

2-الفينيقيون بالجزائر:

الفينيقيون أمة تجارية لا شأن لها بالحروب، وقد كانوا أيام ازدهار مدينة صيدا متوجهين في تجارتهم إلى المشرق، واستعمروا فيه-استعمارا تجاريا- جزيرة قبرص وجزر بحر هيجاي وخاضوا البحر الأسود وبلغوا القفقاس.

وفي القرن 13 ق.م سقطت مدينة صيدا. فصارت مدينة صور عاصمتهم وازدهرت بكثرة العمران وعظمة التجارة. ونافس اليونان الفينيقيين في المشرق فالتفتوا إلى البحر الأبيض والمغرب بسفنهم التجارية وأسسوا بجزره مراكز تجارية بصقلية ومالطة وسردانيا والجزائر الشرقية، وبلغوا حتى اسبانيا.

كانت تجارتهم مع الليبيين مقايضة؛ يأخذون منهم الأنعام والاصواف والجلود وريش الأنعام والعاج يدفعون لهم عوض ذلك أقمشة مصبوغة بالحمرة واسلحة وخمرا وأواني من الزجاج والطين.

وللاتجار مع الليبيين أسسوا بسواحلهم مراكز يستريحون بها من عناء السفر ويتزودون منها ويصلحون سفنهم، وقد راعوا في موقع مراكزهم أمرين: الامتناع ممن يريدهم بسوء، والتمكن من نقل بضائعهم بسهولة.

ومن هذه المراكز حضر موت(سوسة)، عويتقة (بوشاطر) وهما بايالة تونس، ومنها هبون(بونة)، اجيجلي(جيجل)، صلداي(بجاية)، وهذه بالوطن الجزائري.

ويقال ان مؤسسات الفينيقيين بالساحل الليبي بلغت ثلاثمائة مركز، وهو إحصاء قريب من المعقول لان السفن كثيرا ما تحتاج الى الإصلاح، فأهلها مضطرون الى الاستراحة والاستعداد للسفر بعد السير الكثير والمسافة القليلة.

3-تأسيس قرطاجنة:

أسستها الأمير عليسة سنة 814 قبل الميلاد التي تنتمي إلى أسرة ملكية بمدينة صور، وقد جاءت بحاشيتها هاربة من أخيها وكان هدفها الاستقرار في هذه المنطقة. وأسست قرطاجنة على الخليج التونسي قريبا من البحر، وهو مكان قد تعرف عليه الفينيقيون الأوائل وتبينوا مكانته الاستراتيجية في المنطقة، كثرت مبانيها وسكانها، وبلغت أوج عزها في القرن الرابع الى أواخر الثالث (ق.م).

يقال ان اسم قرطاجنة بالفينيقية (قرت حدشت) وعنى هذا العلم: القرية الحديثة.

4- ممتلكات قرطاجنة بالجزائر:

إن الفينيقيين أمة تجارية بحرية، لم يحملها على الدخول المغرب الطمع في انتزاعه من يد أهله والاستبداد عليهم في وطنهم، ولذلك لم تملك منه غير السواحل اللازمة لحياة بحريتها، وأسست بها مدنا لترويج بضائعها بين الأهالي، كما استخدمت البربر في مدنهم بأجور وتسترضي امرائهم بالأموال خوفا من غاراتهم.

ولما تأسست مدينة قرطاجنة اقتطع الفينيقيون من داخل الوطن البربري قطعة استوطنوها ودخل أهلها تحت طاعتهم، وأطلق على هذا القسم اسم **"ليبيا فينيقيا"** وعرف الفينيقيون الذين به باسم **البونيقيين.**

ومن مدن الفينيقين بالساحل الجزائري: هبون(بونة)، وروسفاد (السكيكدة)، شولو (القل)، اجيجلي (جيجل)، صلداي (بجاية)، روسوقورو(تاقصبت أو دلس تقزيزن)، رسجونيا(مطيفو)، اقسيوم (الجزائر)،تباسا، يول (شرشال)، صيغة(ارشقول على الظاهر).

5- علاقات البربر مع القرطاجيين

اعترف المؤرخون أن قرطاجنة كان لها الفضل في كثير من الأعمال العمرانية، وما قامت به من جلب البضائع إلى بربر الجزائر وتعليمهم الحرف والصنائع، كما انها كانت تستميل الرؤساء بالأموال ومن جهة أخرى وكانت تتقرب اليهم بالمصاهرة ولم تقم بكل هذا من أجل خداعهم ولكن اتقاء لهجوماتهم ضد رعاياهم أو تستعين بهم في حروبها.

6-الحضارة القرطاجنية بالجزائر:

استفاد البربر من القرطاجنيين في العديد من الأمور، خاصة في ميدان العمران والزراعة والصناعة مما سهل في تأسيس حضارة في هذه المنطقة.

فمثلا كان شجر الكروم والزيتون بأرض البربر من النباتات الطبيعية ولم يهتدوا الى وجه استثماره، فلما جاورهم القرطاجنيون أخذوا عنهم صناعة عصر العنب للخمر وحب الزيتون للزيت، كما استفادوا من القرطاجنيين ضروبا اخر من البذور لم تكن بوطنهم، وأخذوا عنهم آلة لدرس الحبوب كما تعلموا منهم غرس الأشجار على اختلافها، وتعلموا منهم تربية الحيوانات، وعرفوا منهم المعادن فاستخرجوها؛ من ذلك النحاس واستخرجوه قبل مجيء الرومان، ويظن بعض الباحثين أن ذلك كان بناحية تنس، وتعلموا منهم صنع الرصاص والحلي ونحت الحجارة النفيسة، ولم ترج صناعة الحديد بين البربر إلا على يد القرطاجنيين.

وقد عثر الباحثون في الوطن الجزائري على اطلال من بناءات البربر حكوا فيها الفن الفينيقي. انتشار هذه الحضارة راجع لعدة أسباب مرجعها الى ما كان بين الأمتين من الروابط أهمها:

1. **المدن البونيقية:** أن البربر كانوا يقصدون تلك المدن يشترون منها بضائع بونيقية ويشاهدون بها حضارة بونيقية، فينقلونها داخل وطنهم باختيارهم، وما أسرع البربري إلى أخذ بالجميل إذا لم يكن مبغضا لأهله.
2. **الجنود المرتزقة**[1]**:** قرطاجنة كان لها من البربر جنود مرتزقة، وهؤلاء الجنود اختلطوا بالبونيقيين وتأثروا بحضارتهم، فبعد قضاء زمنا معهم يعودون إلى أوطانهم ناشرين لتلك الحضارة.
3. **أمراء البربر:** سعى الكثير من أمراء البربر بترقية وطنهم، فكانوا يقتبسون من جيرانهم البونيقيين ما يبلغون به أمنيتهم، فيأخذون من مَدَنِيَتِهِمْ وحضارتهم أمثلة صالحة ينشرونها بين رعاياهم بهمة وعناية، ويسيرون بها في مساكنهم واداراتهم شوطا بعيدا والناس كما قيل على دين ملوكهم.

ولكون البربر هم الذي جلبوا إلى وطنهم الحضارة القرطاجنة ونشروها بينهم باختيارهم لم تسقط هذه الحضارة بسقوط قرطاجنة بل عاشت في العصر الروماني، ولم يضرها جوار الحضارة الرومانية.

قال البيروني:"بدلا من أن يقضي الرومان على حضارة قرطاجنة نشروها ومدوا في عمرها، مع عدم المناسبة بين الفينيقيين والرومان أصلا وحضارة، ولكن طول مكث الفينيقيين بافريقية غرس حضارتهم في نفوس البربر غرسا لا يزول بزوال ملكها، حتى أن الرومان لما صاروا يملكون وينشرون حضارتهم لم يفهم ذلك البربر إلا أنها حضارة قرطاجنية، ولم يزل ذلك من أفكارهم إلى الفتح العربي، فكان عمر هذه الحضارة 17 قرنا.

[1] **الجنود المرتزقة** يشير إلى الأفراد الذين يعملون كجنود محترفين دون التبعية لأي جيش وطني محدد. يعملون عادة بعقود مؤقتة أو مرتبطون بشركات خاصة تقدم خدمات عسكرية للحكومات أو الأفراد أو المجموعات المسلحة.، يختلفون عن الجنود التابعين للقوات المسلحة الرسمية في العديد من النواحي. قد يكون لديهم تعليم وتدريب عسكري مهني من خلفيات مختلفة ومن بلدان مختلفة. يتم تجنيدهم عادة للقتال في صراعات مسلحة خارج بلادهم، ويعملون بالمقابل عندما يحصلون على أجور عالية ومكافآت مالية.

7-تأثير قرطاجنة على البربر في الخط واللغة:

كانت للبربر حروف هجائية كما كانت لهم لغة، ولكنها لم تكن لغة آداب وعلم، فلما خالطوا الفينيقيين تأثروا بلغتهم ومالوا إلى خطهم، حتى صاروا بقرطة لا يتكلمون بغير الفينيقية، وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة على عهد مصينيسا فمن بعده من الملوك، وظهر ذلك على نقودهم الدولية التي عاشت بعيش دولتهم الى أواسط القرن الأول للميلاد.

وعلى أيدي الملوك والأمراء انتشرت هذه اللغة بين العامة خصوصا في الجهات التي تجاور مملكة قرطاجنة، ولم تزل حية بنواحي قالمة وبونة إلى أيام القديس أغسطين.

وقد وجدت كتابات بقالمة ونواحيها وقسنطينة وميلة على القبور بهذه اللغة، ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى ما بعد سقوط قرطاجنة. وقد اتخذ البربر لبعض مدنهم أعلاما فينيقية، ومن ملوك نوميديا من سمى أبناءه بأعلام فينيقية.

لقد عاشت اللغة الفينيقية بالجزائر بعد سقوط قرطاجنة قرونا، ولم تقض عليها أو تذهب بأغلبيتها لغة الأمم التي جاءت بعد القرطاجيين، إلى أن جاء العرب فقضت لغتهم على هذه اللغة.

قال البيروني: اتفق المؤرخون على أنه لا يمكن معرفة ما بقي من آثار هذه اللغة لأنها لغة سامية وقد دخلت عليها أختها العربية وحلت محلها.

هذا وان انتشار الفينيقية بتلك الدرجة ودوام عمرها قرونا لا يفيدان أن اللسان البربري حفظها كما هي، بل لا بد أن تكون قد تغيرت وامتزجت بالبربرية.

8-تأثير قرطاجنة على البربر في العقيدة

كانت للبربر ديانتهم التي لا تختلف عن ديانات الأمم القديمة الوثنية إلا من حيث تفاصيل العبادات وتماثيل المعبودات وأسماؤها التي هي من توابع اللغات.

ولما جاورهم القرطاجنيون تأثروا بهم في عقيدتهم وقلدوهم في كثير من طرائق عباداتهم وغيروا بعض ما ورثوه عن أسلافهم بما شاهدوه عند جيرانهم.

وعبدوا من آلهة الفينيقيين "استارتي" و"جليست" ومن الآلهة التي بقي اسمها إلى ما بعد الاستيلاء الروماني "بليدير" ومعناه الرب العظيم وكان معبودا بسيقوس وجوار قالمة.